العولمة و«التراثات» المهنية العتيقة:

نحو «هيئة إفتراضية» وتمثيل «ذاتي» رقمي في العمل النقابي العربي في القرن الحادي والعشرين

د. وليد أحمد السيد*

■ ثمة «دكتاتورية مقنَعة» تسللت للعمل المهني العربي باسم الديمقراطية والإنتخابات وصناديق الإقتراع، ومرت لعقود دونما مراجعة أو نقد أو دحض، وزاغت طويلا عن الإستئصال لما تجلبه من مضار على هيئاتها العامة «الغافلة» والتي لا حول لها أمام هذه العملية الجائرة التي تنقل حقوق الهيئة العامة للنقابات لبضعة أفراد تسيء استغلالها لمآربها الخاصة. مناسبة هذا الحديث هو ما يجري دوريا في انتخابات الهيئات النقابية في الوطن العربي عموما ـ ويشمل النقابات المهنية ونقابة المهندسين الأردنية كحالة خاصة من معايشة واقعية لكاتب هذه السطور المقيم اليوم بلندن والعضو في شعبتها المعمارية. فقد درجت العادة أن تتنافس «فئة» ما أو فئات ـ تَسمها الحزبية والإيديولوجيا الضيقة التي تتناقض مع فكرة العمل المهني ذاتها – على تمثيل قطاعات كبيرة من المهندسين والمهنيين والأكاديميين ممن ينتسبون لهذه النقابة يتم خلال هذه العملية ترشيح «قوائم» حمراء وزرقاء وصفراء تحمل كل منها أجندة حزبية وأيديولوجية خاصة وضيقة لا تعكس أدبيات وأبجديات العمل المهني والأسس التي قامت لأجلها النقابة، وفوق هذا كله تخفي بين ثنايا تنافسها على المناصب نوايا وأجندة خاصة. ونناقش في هذه المساحة آفات هذه العملية برمتها وما نتج عن تطبيقها من هضم حقوق الهيئة العامة وتهميشهم باسم «الإنتخابات» وصناديق الإقتراع والديمقراطية. ومن هنا تتجلى ضرورة «استئصال» فكرة هذه الإنتخابات وحل هيئاتها المنتخبة برفع المشكلة أولا للوعي الجمعي للهيئات العامة لهذه النقابات المهنية وهو هدف هذه الأطروحة.

هذه النقابات المهنية التي تتزايد أعداد منتسبيها شهريا وسنويا بانضمام الخريجين الجدد ممن أمضى سنوات عديدة في دراسات علمية متخصصة هي ـ نظريا وعمليا ـ وجدت لتنظيم العمل المهني وتفعيل ومراقبة تطبيق قوانين المهنة وسن ما يكفل الممارسة الجيدة وحفظ حقوق منتسبيها، عدا عن التصرف المسؤول الواعي والأمين في مواردها المالية التي تستمدها من أعضائها. وبذا فللنقابة أكثر من جانب تشريعي وإداري وتمثيلي وسواه. وبالنظر إلى طبيعة وظيفية النقابة والواجبات المنوطة بها وطبيعة منتسبيها، فإن ذلك يتطلب ـ وكما هو حاصل فعلا ـ مجموعة أو مجموعات من جحافل الكوادر الوظيفية «المعينة» لإدارة شؤون النقابة ومنتسبيها. وهؤلاء ينبغي، وتم ويتم، تعيينهم بناء على السيرة الذاتية والكفاءة المهنية لقاء راتب شهري. وبكلمات أخرى هم موظفون يسترزقون كأي فرد آخر ويتمتعون، وهو شرط أساسي، بالحيادية الحزبية والولاء المهني للوظيفة فحسب وبالكفاءة والخبرة والأداء العالي. وهؤلاء يشكلون دعائم أي مؤسسة في أية نقابة مهنية أو سياسية في أي نظام ديمقراطي في العالم ـ وبخاصة المتطور الغربي. ويعتمد النظام الوظيفي وعجلة الحياة المهنية على كفاءتهم أكثر من أي اعتبار آخر، وإن تبدلت وجوه العمل السياسي أو الحزبي وسواه. وتسير العجلة بهم لا بغيرهم، فهم حجر الأساس وركيزة مهمة لإنجاح الأسس التي قامت عليها النقابات ويعملون «كالروبوتات» لتسيير شؤون النقابة. ويمكن تشبيههم، وربما استبدالهم في المستقبل، بالروبوتات نظرا للوظيفية التي يؤدونها للنقابة والتي لا غنى للعمل النقابي عنهم. وهذه الطبقة العاملة وكما هو حاصل حاليا لا تتدخل في صناعة القرار وسن القوانين، إنما ذلك منوط ـ وللأسف – بعدد لا يتجاوز أصابع اليد تم انتخابهم (!) للتربع على قمة الهرم النقابي وإعطاؤهم «توقيعا على بياض» من قبل الهيئة العامة ـ وهنا مكمن الخلل وموضع مداخلتنا في هذه المساحة.

ففكرة «الإنتخاب» وكفلسفة مجردة في الوعي الغربي الديمقراطي نتجت من حقيقة «التقسيم الوظائفي» للمجتمع الإنساني كما ناقشها علماء الإجتماع والتي تقيم أوده وتعمل على تسيير شؤونه بتكليف طبقة «مؤهلة» وذات كفاءة وتفرغ للقيام بدور النيابة عن عامة مجتمعات «غير متجانسة» أو (Heterogeneous) من حيث قدراتها وخبراتها في التصدي لمختلف مناحي الحياة تبعا لمبدأ التخصص. وبرغم فكرة التفويض هذه إلا أن إعطاء حق التمثيل الفردي لا يكون «مطلقا» البتة، إذ تظل المرجعية للهيئات المنتخبة قائمة وتتم العودة إلى الناخبين في قرارات مهمة تخص الأمة وتعرف بإسم «الإستفتاء الشعبي» أو (Referendum). ومثال على ذلك ما حصل مؤخرا حين أجرت دول الإتحاد الأوروبي كل على حدة استفتاء شعبيا للإندماج في العملة الموحدة «اليورو»، حيث ما يزال الشارع العام البريطاني له اليد الطولى في رفض الفكرة. ومن هنا، وبملاحظة حقيقة جوهرية في اختلاف المجتمعين (الإنساني والنقابي)، حيث أن النقابات المهنية تختلف بتركيبتها البينوية الجينية إختلافا جوهريا عن المجتمعات الإنسانية الكلية من حيث أنها «متجانسة» التركيبة أو (Homogeneous) بنسبة مائة بالمائة، إذ هم مجتمع مصغر لمهنة واحدة، يتجلى موطن الخلل الجوهري في التقدم لصناديق الإقتراع في لحظة زمنية ما وتوكيل مجموعة أفراد من هذا المجتمع الذكي المتجانس خبرة وعلما وحرفة وإعطائهم «صكا» أو «توقيعا على ورقة بيضاء» كي تنوب عنهم ولمدة سنوات عديدة للتحكم في شؤونهم واستصدار القوانين والتشريعات التي تؤثر في صميم مهنتهم وحياة عملهم اليومية ودون الرجوع للهيئة العامة قبل موعد الإنتخابات التالية!!!

وانطلاقا من هذا الخلل الأساسي تتعدد الممارسات المغلوطة والتي تصب في مآرب خاصة وشخصية وكما أثبتتها الوقائع العملية والتي لا تحتاج لكبير عناء في إثبات أو برهان، مما نجم عنه إحجام نسبة كبيرة من هذه المجتمعات الذكية المتخصصة عن الدخول في ترهات هذه الإنتخابات وما يدور في فلكها من نتائج تصب في خدمة تلك الأيديولوجيا أو ذاك «اللوبي» أو حتى ذلك الفرد المستقل ذي المآرب الخاصة البراغماتية. وهذا بالتالي نحى بالعمل النقابي منحى سيئا، إذ بإحجام النخب المثقفة الذكية والشرائح الواسعة من هذه الهيئات العامة عن الدخول في مهاترات العمل النقابي فتح ذلك الباب على مصراعيه لذوي المآرب والمصالح الخاصة للتربع على قمة هرم العمل النقابي كطبقة تسعى للسيطرة وتسخير الموارد العامة لتصب في أهداف مادية ربحية لمصالحها ومكاتبها الخاصة. وفي هذا يستوي من يختبئ خلف نظرة خجلى وطأطأة الرأس بدعوى التواضع والذي تتساقط من كوعيه نقاط ماء الوضوء مع من تفوح من فمه رائحة «الجعة»، من أدنى اليمين إلى أقصى اليسار، طالما كان الهدف واحدا وهو السيطرة لأغراض خاصة أيديولوجية أو براغماتية! فكلاهما يكون في هذه الحالة لص سارق خسيس آكل «للسحت» وخائن للأمانة! وبين هذا وذاك تجد أفرادا مسالمين لا ناقة لهم ولا جمل تمت استمالتهم لهذا اليمين المتطرف أو ذاك اليسار العلماني لتمرير هذا القرار المصلحي الإرتزاقي أو ذاك وعلى حين «غفلة» من النقابة وأهلها.

ومما يدعم «نظرية المؤامرة» ممارسات سابقة لها أول ولا آخر لها عاين بعضها كاتب هذه السطور، وتتناقلها الألسن وتفوح رائحتها عبر أثير الإعلام بين فينة وأخرى. فهذه الفئة التي وصلت عبر صناديق الإقتراع وصل بعضهم لمواقع سيادية أخرى متقدمة بالدولة وتبين لاحقا – مما كان افتراضيا آنذاك ـ غلبة المصالح الخاصة على العمل التطوعي العام الذي كان شعار الحملة التنافسية للوصول للمنصب. كذلك عمل بعضهم على استصدار القوانين التي تهمش قدرة المكاتب الناشئة على تحصيل العمل والمشاريع ـ وهو مربط الفرس ـ لصالح المكاتب التي يملكونها. وفي حالات أخرى تم استصدار قوانين لشطب المقيمين أو العاملين بالخارج من سجلات المكاتب التي لهم أسهم مشاركون بها رغم أن النقابة تجبي «الجزية» من هؤلاء المغتربين كشرط لاستمرارية عضويتهِم. وبتغييب منهجي ومستمر للمغتربين ـ رغم أن الهيئة المنتخَبة تسعى بكل الوسائل للحصول على عمل خارج نطاق الدولة أو الإقليم النقابي سواء بسواء كأفراد الهيئة العامة ـ وبعزوف شرائح واسعة من النخب المقيمة من الهيئة العامة سنحت الفرص لتمرير مجموعات من القرارات التي تضع العراقيل أمام العموم أكثر مما تفيدهم. من الحالات التي عايشها كاتب هذه السطور أن أحدهم أحجم عن ترشيح نفسه في إنتخابات لخدمة الطلبة في الجامعة لما لذلك من «مَغرم» قد يجلبه من مضايقات ما بعد التخرج، لتجده وبعد عشرين سنة وبقدرة قادر متصدرا قائمة انتخابات تعود «بالمغنم» المادي على مكتبه، فضلا عن فضائل الأضواء النقابية والمؤسسية العامة للدولة! فالكساد العام وسلم التسلق البراغماتي ومدخل وظائف الدولة ومشاريع إعادة الإعمار تبدو كلها «جزرات» لذيذات في نهاية «عصا» تدر ربحية جيدة ومدخلا مهما للسيطرة والنفع الخاص! وفي حالات اخرى تجد أحدهم مفصولا لعدم الكفاءة وزائدا عن الحاجة الوظيفية للنقابة، ليخرج من الباب الأمامي فيعود ليدخل من الباب الخلفي فائزا بالإنتخابات نظرا لارتباطاته الحزبية الأيديولوجية. وفي حالات أخرى تجد أحدهم لا يأتمن نفسه ذاتها وقد أصبح العمل العام ومصلحة النقابة ومواردها على سلم أولوياته! وهكذا أصبحت النقابة، والتي هي بالأساس مؤسسة مهنية تعنى بالرقي وتطوير المهن السامية، مجالا خصبا لتطبيق السياسات الحزبية وليرتع بها من لا يجد ما يفعل عملا مفيدا آخر ومن «أدمن» حب الظهور ومارس «سلبية الإنتاج» ضمن ردهات البيروقراطية العقيمة ودوائر «الطحن» الفارغ! وهكذا ففيما يسير العالم المتطور اليوم نحو تفعيل دور الفرد ومشاركته في كل أمور الحياة التي تهمه بتطور وسائل العولمة وتحويل الفرد إلى «رقم افتراضي»، نجد مجموعات بائسة من البشر ما تزال تعيش على هامش التاريخ تفكر بعقلية الماضي من أجل تكريس الموارد العامة لمصالحها الخاصة! يروى أن علي بن أبي طالب دخل على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وعنده حذيفة بن اليمان وهما يراجعان أمور المسلمين رضي الله عنهم جميعا فسأل عمر عليا:» فيم جئتنا يا أبا الحسن؟ إن كان في أمر المسلمين أبقيت السراج مضاء، وإن كان في أمر يخصك أطفأت المصباح كيلا نستعمل مال المسلمين في غير مصالحهم»! ولا نظن أن أقصى اليمين المعاصر المتهالك على النقابات يدرك ما تعنيه إضاعة «قطرتي زيت» لمصباح أمير المؤمنين عمر في غير مصالح العامة ومن ائتمنهم على أمورهم! ناهيك عن سعيهم للسلطة والمال وتجيير الأعمال لمكاتبهم ولي أعناق القوانين كي تناسبهم دون غيرهم. فالتهم لا تني تتوالى على ممارسات من تربع سابقا على مقدرات العامة في النقابات، فالسفر بدرجات رجال الأعمال واستنزاف الموارد هو عنوان «المناصب» التي تهالكوا عليها، ويستوي في ذلك اليمين واليسار وما بينهما. ومن هنا تتجلى أهمية وضرورة إعادة الحقوق لأصحابها وإبقاء حق التمثيل الفردي لكل من أعضاء الهيئة العامة وسحب فكرة «التوقيع على بياض» في يوم معين كل أربع سنوات، والسعي نحو تفعيل وسائل العولمة نحو «تمثيل افتراضي» فردي باستخدام وسائل التكنولوجيا المتطورة التي قربت المسافات وسهلت ما كان مستحيلا قبل عشر سنوات فقط.

وهنا يبرز التساؤل الإستنكاري نحو إعادة صياغة العلاقات ضمن منظومة النقابات «المجتمعية»: من هو الذي سن هذا القانون «الجائر» بتجريدي – كعضو منتسب لمجتمع خاص متجانس – من حقي في تمثيل نفسي والتصويت بشكل مستمر ودوري على القرارات التي تؤثر مباشرة في مهنتي ورزقي، ووضعي أمام واقع أن أختار بين «أفضل» السيء ممن لا أرضى أن يمثلني، أو الأحجام عن التصويت وفي كلتا الحالتين يصل لسدة صناعة القرار العام من ليس أهلا لذلك ولا أريده؟ ومن هو الذي أعطى الحق لفرد كي يحصل على «تفويض مفتوح ومطلق» أو «توقيعا على بياض» كي يكون له مطلق الحرية في سن القوانين نيابة عني وعن غيري؟؟؟ في مقابل هذه التساؤلات ونزوعا نحو المخرج لهذه الإشكالية يطرح سؤال جوهري: وما هو الحل إذن؟ وما هي الآلية؟

الحل بسيط ويسير وتقدمه وسائل عولمة الإتصالات وهو: حل قانون الإنتخاب وإعادة هيكلة النقابات لتقتصر على اللجان الوظيفية العاملة والهيئة العامة فقط. أما الأولى فتعين ويتم الإشراف على أدائها من قبل لجان معنية تابعة للدولة محايدة تراقب أداءها وتقيم كفاءاتها. وفي مقابل ذلك يتم تقديم آلية «استفتاء عام للهيئة العامة» على القرارات المهمة باستخدام نظام إلكتروني والتي يتم تقديم مشروع مقترحاتها من أي فرد في هذا المجتمع الذكي المتجانس الذي تحتفظ النقابات رسميا بوسائل الإتصال الإلكترونية لأفراده، كما تطور مجموعة برامج كمبيوتر خاصة لأغراض التصويت والإقتراح، وتوضع آلية لصياغة المقترح الذي يؤيده عدد معين من الأعضاء (عشرة أو عشرين مثلا) ليقدم للتصويت العام. وهكذا يمكن الوصول لنظام من أكثر النظم الغربية ديمقراطية ودون استنزاف موارد النقابات لحساب هذا الفرد المنتخب أو تلك الجهة الأيديولوجية وتعود الحقوق لأفراد النقابة. فمن كانت له طموحات خاصة فليصرف جهوده المغرضة في مكان آخر، ومن كانت له طموحات مهنية بتوسيع رصيده البنكي على حساب العامة فليعمل بكده وجهده كغيره للحصول والتنافس على العمل، لا من خلال الترشح لمناصب عامة يمارس من خلالها «النصب» والفساد على حساب غالبية «غافلة» مسالمة لا ناقة لها ولا جمل في هذه الأجندات الأيديولوجية والحزبية والخاصة!

في كتابه (the ـ Life in the Coming Millennium Next 500 Years) الذي صدر في منتصف التسعينيات تنبأ (Adrian Berry) بمؤشرات توجه البشرية نحو عالم رقمي ذكي على غرار سويسرا نموذجا حيث تتلاشى طبقة صناعة القرار، غير المرغوب بها تاريخيا، ليحل محلها مجتمع ذكي يحتكم للتصويت في شتى مجالات حياته والتي توفرها وسائل العولمة كل فرد من مكانه وبواسطة الإنترنت والبريد الإلكتروني. وها نحن لم يمض على نبؤته تلك أكثر من عقد لنجدها تكاد تكون واقعا ملموسا في مناحي عديدة في حياتنا اليومية حيث يمكن لأي فرد من الإدلاء بصوته على مواضيع تتراوح من التعليق على الأخبار اليومية بالصحف المحلية والعالمية إلى التصويت على معطيات السياسة اليومية والبرامج الفضائية المباشرة وغير المباشرة. ومن هنا فقد كان من الممكن بالأمس وقبل عدة عقود وبغياب هذه التطورات التكنولوجية المهمة تفهم فكرة تجمع خمسة أشخاص في اجتماعات مغلقة وراء الكواليس للخروج بمجموعة من القرارات نيابة عن آلاف مؤلفة من البشر كلجان عمل في هذه النقابة أو تلك، أما اليوم فهذه قد أصبحت فكرة ساذجة وينبغي أن تكون ضربا من التاريخ المندثر. فالعولمة فتحت الحدود بشكل غير مسبوق وأصبح يمكن الإتصال والتواصل بوسائل عدة منها الانترنت صوتا وصورة وبالكلمة بالبريد الإلكتروني عبر القارات لأعضاء في لجان وهيئات ونقابات بشكل مباشر. وأصبح يمكن القيام بمهام متعددة والتصويت وتمثيل كل فرد لنفسه عبر نظم إلكترونية لا تحتاج لأكثر من موظف لتشغيلها ولم تعد هناك حاجة «للوبيات» أوشلل وتجمعات أيديولوجية أو «عائلات»، والتي تطورت مؤخرا «كفيروسات» متوالدة بدأت تظهر بشكل انتهازي فاضح لتقحم نفسها في حياة المهنيين وعلى حساب مصالحهم باسم العمل التطوعي العام.

فالإنتساب «الإفتراضي» بات شائعا في العالم ويمكن اليوم الإنتساب لمجموعات من المنتديات والهيئات والجامعات والمؤسسات أينما كنت في هذا العالم وتنسيق أعمالك من خلف شاشة الكمبيوتر في دفء بيتك. فبالأمس فقط وصلتني كلمة السر التي طلبت إعادة إرسالها من قسم المعلومات بجامعة لندن حيث درست في مرحلة الدكتوراة قبل 12 عاما للدخول على بريدي بجامعة لندن وأمكنني إعادة الدخول لبريدي الإلكتروني من بيتي للتواصل مع الجامعة ونشاطاتها كعضو في لجانها. فشكرا للعولمة التي نسخت ضروبا من التراث العتيق والتي يمكن توظيفها بفعالية. وضمن هذا الإطار، فقد طرح مؤخرا المفكر المعماري الدكتور مشاري النعيم أهمية وضرورة إنشاء هيئة عربية إقليمية للمعماريين العرب. وهذه الفكرة بروعتها ونجاعتها في تنظيم العمل العربي ما كان يمكن مجرد التفكير فيها لولا العولمة التي يمكن أن تحول جماهير النخبة من معماريي العالم العربي إلى «منتدى إفتراضي» عبر الإنترنت ووسائل العولمة ليدلي كل منهم برأيه ويمثل نفسه، وهو ما كان صعبا إن لم يكن مستحيلا التفكير فيه في الماضي القريب. وبذا يمكن تجاوز مسائل الإنتخابات والبيروقراطية الساذجة والتقليدية والعمل بفعالية لتقريب العمل العربي المشترك لقطع الحدود وتذويب الجغرافيا، فضلا عن التفكير في منتدى عالمي ـ وكما نادينا به من على منبر مجلة البناء في العدد 214 دعما وتأييا للفكرة النيرة للصديق المفكر الدكتور مشاري النعيم ونحو «هيئة معمارية عربية جامعة إفتراضية ورقمية بفلسفتها».

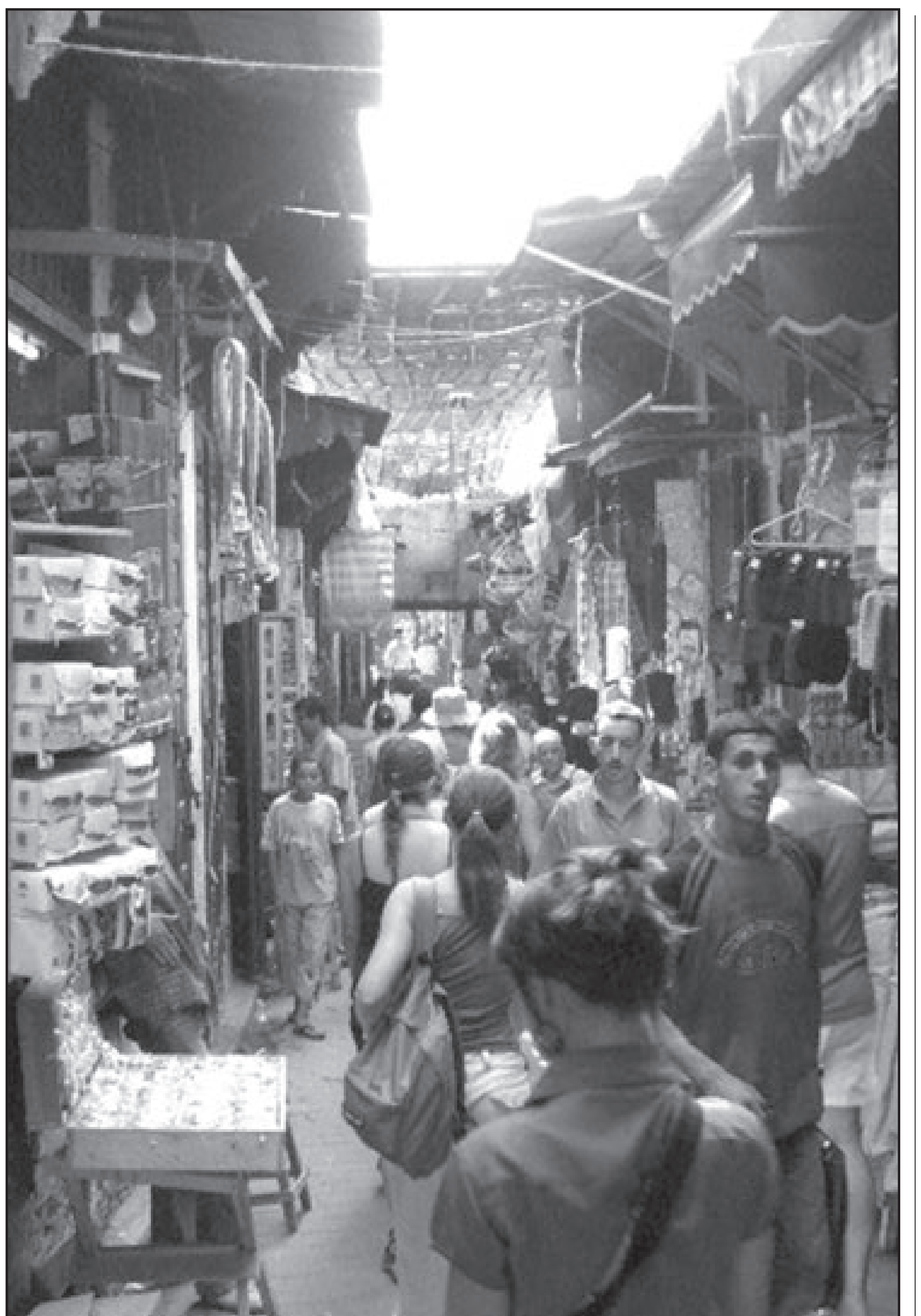

منظر جانبي لسوق بمدينة فاس المغربية

---

* دكتوراة في فلسفة العمارة من (UCL) – جامعة لندن
مدير مجموعة لونارد ودار معمار بلندن
sayedw03@yahoo.co.uk

فضاءات ثقافية

في مديح الموت: عبدالكبير الخطيبي الاسم العربي خارج الضريح

د. عبداللطيف الزكري

إن اهتمامات عبدالكبير الخطيبي متنوعة وخصبة وثرية إلى درجة أن استقصاء جميع أعماله يتطلب وقتا ضخما، لا يخلو من متعة وفائدة، لكنه لا يخلو أيضا من مشاق إعمال الذهن والتفكير والغوص فيما وراء المعنى...إذ أن الخطيبي يحتفي بالرموز والإيحاءات والإيماءات والدلالات الشاردة التي تنتشر في دنيانا المُعاشة والتاريخية:دنيا الحياة اليومية والذاكرة والتاريخ الإنساني.بدءا من تجربته الشعرية، التي تؤرخ لبداياته الإبداعية، قام الخطيبي في «المناضل الطبقي على الطريقة الطاوية» في تأمل حياة الإنسان المعاصر، وفي تأمل تجربته كإنسان مبدع قادر على التغيير والتحكم في الحياة. ثم توالت كتاباته الفكرية والنقدية والروائية والكتابات حول الفن التشكيلي المغربي بمعية إدمون عمران المليح...لن أستطيع الحديث عن كل أعماله لأنني ببساطة لم أستطع الحصول عليها جميعها.. وقد تعرفت عليه، في البدء بالقراءة عنه، ولفت انتباهي اهتمام الباحث الأستاذ الجامعي بكلية الآداب بأكادير الدكتور حسن وهبي بالخطيبي، حيث أخرج عنه كتابا سماه(كلمات العالم)–إن لم تخني الذاكرة– تتبع فيه تجربة الخطيبي في الكتابة، هذا الكتاب الموضوع بالفرنسية فتح أمامي الطريق إلى إعادة اكتشاف الخطيبي وقراءته من جديد، ولم أكن قد قرأت للخطيبي، قبل الاطلاع على كتاب حسن وهبي سوى ترجمة محمد بنيس لكتاب الخطيبي (الاسم العربي الجريح)، وأستطيع أن أقول بأن كتاب الخطيبي هذا جعل الاسم العربي خارج الضريح، أي خارج عالم الموت، لأنه نبش في الذاكرة وفي المعاش، فيما نحياه، ونحلم به، ونفكر فيه وبه، وفيما يثوي ويرقد في أعماقنا، منذ أبد التاريخ، وبهذا الكتاب أيضا أصبح اسم الخطيبي خارج الضريح، بمعنى أنه خلد نفسه في عالم الكتابة، العالم الذي لا يندثر.العالم الذي يحتوي العدم ويتجاوزه في آن...إن الخطيبي بكل أعماله، تجاوز موته الجسدي، وأصبح كيانه، خارج الضريح، يحيا بيننا وفينا، وكلما قرأناه أحسسنا كأنه ذاك الطائر الناطق، الذي أورد حكايته في كتابه «الاسم العربي الجريح»، ذاك الطائر الذي ينطق فيسرد حياة الشخصية التي تنصت إليه..عبدالكبير الخطيبي، طائر ناطق يتحدث عن حياتنا في كتاباته.. يكشف لنا المخبوء والدفين والظاهر المعتاد الذي قلما نلتفت إليه، بحكم العادة، العادة التي تنسينا أن نحيا حياتنا، كما ينبغي أن نحياها، حياتنا التي ينبغي ألا تشبه الموت، حياتنا خارج الضريح، الذي ينتظرنا جميعا، والذي ينبغي وإن حشرونا فيه، أن نخرج منه ونصبح خارج الضريح..داخل التاريخ...وهذا وجه من وجوه مديح الموت....

افتتاح معرض الرسام محمد فنينة: العبارة التشكيلية في حالات من التجريد والوله الصوفي...

تونس ـ «القدس العربي»

من شمس الدين العوني

بفضاء رائق من فضاءات مدينة تونس العتيقة هو دار الجلد، يعرض الفنان محمد فنينة عددا من أعماله التشكيلية الجديدة تحت عنوان «بحر وأرض» ضمن معرض تم افتتاحه مساء الجمعة 6 آذار/مارس وفي إطار سلسلة من المعارض التي يقيمها هذا الفنان المبدع الذي شارك في الدورة الأخيرة للبينالي المتوسطي للفنون التشكيلية بقصر خير الدين حيث كانت هناك مشاركات مختلفة من دول حوض المتوسط نذكر منها فرنسا وإسبانيا وإيطاليا وسورية ومصر والمغرب والبرتغال وليبيا وتونس حاضنة هذه التظاهرة...

وقد لقيت مشاركة الفنان التشكيلي محمد فنينة في هذا المعرض اهتماما بالنظر للتجربة الجمالية والفنية التي يقدمها هذا المبدع منذ سنوات فهو مهتم بأجواء البحر باعتباره ابن الحمامات مدينة الزرقة والزهر والبرتقال...

في معرض دار الجلد الذي يتواصل الى نهاية هذا الشهر الجاري يتواصل الفنان محمد فنينة مع تجربته التي عانقت سؤال التجريب ضمن مناخات تجريدية بين أجواء البحر والأرض وألق الدراويش في رقصهم الأخاذ الذي ينم عن متاهة من الألوان في حركة مفتوحة يأخذ منها الفنان تلك الأطياف التي تنتهي باندماج فائق للالوان والأصوات والحركات...

عدد من اللوحات والأعمال مختلفة الأشكال والأحجام تبرز معها لغة اللون في محاورة العناصر والتفاصيل والأشياء في فسحة من الأزرق والبرتقالي والأصفر وكأن محمد فنينة قد خير منطق التفاعل الجمالي في تحاور اللون والحالة والعبارة حيث ذهب عميقا في تأهيل هذا الضرب من ألوانه والعشق تجاه اللون وحالاته الممكنة...

في فضاء دار الجلد تعددت اللوحات وفق رؤية الفنان التشكيلي محمد فنينة القائلة بالعبارة التشكيلية في مناخات من التجربة وحالات الوله الصوفي وهنا نلمس تلك العلاقة المخصوصة ليس في مجال التشكيل فحسب بل في مختلف الفنون ومداراتها، بين ذوبان اللحظة المجردة وعبارتها الممكنة في الوجدان وحالات التصوف والعشق التي اشتغل عليها الأدباء والمفكرون والفلاسفة...

معرض آخر في سياق التجربة عبر عن نضج في الوعي لدى الفنان محمد فنينة الذي ينتظر أن يواصل هذه السلسلة من المعارض في تونس وخارجها...

بحر وأرض فسحة أخرى في عوالم الفن التشكيلي وفق رؤية مخصوصة تشغل بال فنان نحت مجراه في المشهد التشكيلي التونسي بكثير من الدأب وحرقة الأسئلة وجدية الاشتغال.

العدد الجديد من مجلة «ميزوبوتاميا»: الدعوة لبناء عاصمة جديدة باسم بابل

بغداد ـ «القدس العربي»:

صدر العدد (16) من مجلة «ميزوبوتاميا ـ بلاد النهرين» الخاصة بالهوية العراقية، والتي تصدر في بغداد عن «مركز دراسات الامة العراقية». نوهت المجلة الى تأجيل اصدار (موسوعة اللغات العراقية) الى العدد القادم بسبب زحمة النصوص المشتركة ولانها سوف تكون موسوعة ضخمة وشاملة لتاريخ اللغات العراقية القديمة والحالية، وآدابها.

وقد احتفى هذا العدد باعمار العاصمة بغداد لتكون رمزا لعودة الحياة الى العراق كله. وقد عبر رئيس التحرير عن هذا الاحتفاء في مقالته الافتتاحية بعودة السلام والحياة الى الوطن، بالدعوة الى (بناء عاصمة ادارية جديدة).

وهنالك مواضيع عديدة متنوعة وشيقة تتمحور كلها كالعادة حول جانب معين من الهوية العراقية.

ويمكن تصفح هذا العدد مع جميع الاعداد السابقة على موقع المجلة التالي:

www.mesopotamia4374.com

تداعيات

خان يونس... مدينة وادعة تسبح في فضاء يابس !

موسى ابو كرش *

■ ترددتُ طويلاً نهايةَ الأسبوع الماضي أمام دعوة وجّهها لي الزميل الشاعر نصر جميل شعث، منسّق «ملتقى الإبداع الأدبي» في مركز ثقافة الطفل الفلسطيني، التابع لـ «جمعية الثقافة والفكر الحرّ» بخان يونس؛ لحضور احتفائيّةٍ بالكاتبين: علي أبو خطاب وسماح الشيخ؛ بمناسبة صدور مجموعتهما القصصية المشتركة «غابة الحكايات» المخصصة للأطفال، ليس تعالياً، لا قدر الله، فللزميلين معزّة خاصة في نفسي، وكنتُ حضرتُ لهما العديدَ من الفعاليّات المسرحية، والمناسبة فرصة ثمينة لمشاهدة أصدقاء حميمين، طال غيابهم، وأتوق لرؤيتهم، والجلوس إليهم، هذا عدا عن كون المناسبة ذاتها فرصة نادرة للتعرف على جمعية الثقافة الفكر الحر، التي حرّرتُ لها مئات الأخبار التي كانت تردني على مكتب جريدة «الحياة الجديدة» من الزملاء المراسَلين وعبر المركز ذاته.. وهكذا وجدتني أقع «في حيص بيص»، أتوق للموافقة، وسرعان ما أنكص عنها .. فحالة الإحباط التي رانت على قلوبنا في غزة منذ أسر «جلعاد»، وما تلاها من حصار وإغلاق ودمار «ونقص في الأموال والأنفس والثمرات»، وترقب نتائج الحوار التي تطلّ من القاهرة بوجوه تدعو إلى التثاؤب وتتراوح بين اليأس والرجاء، جعلت الفردَ منّا يركن إلى نفسه، و«يطنش» العديد من المواعيد وربما «يفركشها» غير عابئ ولا نادم، بل، ويمتنع مكرها عن المشاركة فيها أو الذهاب إليها.. ووجدتني أخيراً أركس ظهرَ المجن وأقنع صديقي الشاعر أكرم أبو سمرا بقبول الدعوة .. فكم ذهبنا إلى خان يونس لتقديم واجبات العزاء، فلنذهب هذه المرة للاحتفاء.. وهكذا وجدنا أنفسنا بعد ظهر الخميس ننحشر في مقعد مهترئ إلى باص صغير أبيض ـ الله وحده يعلم لما كان هذا مخصصاً قبل سفرتنا العتيدة هذه!

أنا بطبعي لا أغبط أصحاب السيارات وصاحبي مثلي مشّاء «بغير نميمة» تَعرفنا الى شوارع غزة وأرصفتها وأزقتها، لا سيما شارعها الرئيسي عمر المختار، بل ويشربنا عن ظهر قلب، ونحن بدورنا نعرفه عن غيب ظهر.. نعرف هناته وسكناته ونأماته ومسيراته وتقلبات أسواقه وصخبه وغطيطه وزغاطيطه، بل، والعديد من رواده أيضاً، ولكني غبطت هذه المرة أصحاب السيارات ليس لعجزي عن الذهاب إلى خان يونس سيراً على الأقدام، وإنما لأسباب أخرى لن أضن عليكم بذكرها.. فالسيارة تتولى عنك المسير، وتتيح لذهنك مساحة للتأمل في نفسك، وتأمل الأشياء من حولك.. والسيارة تضفي بزجاجها على الأشياء سحراً شفافاً تلونها، بألوانها فتبدو أمام عينيك برونق جديد مغاير، فتزيد الجميل جمالاً وتجمّل القبيح في عينيك! وهي بهذا توقعك في خداع بصري أنيق محبّب.. السيارة تنهب الطريق فتتيح لعينيك نظرةً مشهدية كليّة سريعة خاطفة، توقعك في سحر الأماكن، ولا توقعك في حرام النسا.. والسيارة فوق ذلك تتيح لك رشف فنجان من القهوة، لا يمكن لك أن ترشفه ماشياً، خاصة إذا كان مقرونا بمجّة من سيجارة ما يحيل مشاهداتك إلى شريط سينمائي رشيق تخرجه أنت وحدك، كيفما تشاء، وأنى تشاء ممزوجاً بالصوت واللون والطعم والرائحة أيضاً ... وهكذا وجدتني أصاحب البحر.. هذا الهيولى الأزرق اللا نهائي، أغسل عيني بصفاء مياهه، وأجلو صدري بعبق هوائه وسمعي برهافة أمواجه، صحيح أن عادم الباص ما فتئ يذكرنا بـ «شحبار بابور الكاز» في بيوتنا، ولكن الوضع مختلفٌ هذه المرة؛ فثمة هواء متجدد يزفره البحر إلى خياشيمنا نحن الغزيين الغارقين في التلوث واللا مبالاة.

الباص ينهب الطريق، والمشاهد التي تصل إلى شاشات أعيننا تعكس مشاهد البؤس وحالات الدمار المحدث والتليد، محررة «نتساريم» وجوارها ومحررات مواصي دير البلح وخان يونس تعيد للنفس حزنها وكآبتها.. فغير الأعشاب لا زرع ولا ضرع «بئر معطلة وقصر مشيد»... من بعيد بدت لنا خان يونس هادئة شاحبة تسبح في فراغ يابس وتمد أذرعها مستجدية إلى البحر، تلتمس في فضائه الراحة والسكون، و ما إن دلفنا إلى شوارعنا حتى شعرنا بألفة غير معهودة، ووجدنا أنفسنا نقع في غرامها.. المدن كالنساء عادة، إما أن تألفهن وتقع في حبائلهن من أول نظرة، وإما أن تنفر منهن وتشيح بوجهك عنهن، وتتمنى أن تمرق منهن مروق السهم من الرمية.

في المرات القليلة التي زرت فيها خان يونس، أو مررت منها وعبرها إلى رفح لم يتسن لي أن أشتم رائحة هذه المدينة الوادعة، أو أن أتعرف على شوارعها ومبانيها ومساجدها ومحلاتها وأسواقها، إذ كانت زياراتي خاطفة عابرة، تقتصر على تقديم واجب العزاء في الأغلب.. ننزل من السيارة، ونرشف فنجان القهوة مع حبة تمر ـ على عادة سكان القطاع هذه الأيام، ثم نعود أدراجنا تزكم أنوفنا رائحة الموت وأنفاسه الكريهة الخضراء.. فكيف استدرجتنا خان يونس هذه المرة، وأجبرتنا على التسكع في شوارعها والولوج إلى حوانيتها وأزقتها وحواريها والمشاركة في فعالياتها؟؟ يبدو أن زيارة الأماكن تصطبغ وتتلون بالهدف الذي قدمت من اجله، فزيارة المدن للسياحة تختلف عن زيارتك لها للعمل أو الدراسة .. وهذه المرة قدمنا إلى خان يونس للاحتفاء، فكان مشهدها احتفاليا بحق.. في الموقف العام للسيارات القريب من مركز المدينة توقف بنا الباص السمفوني.. ترجلنا منه على عجل وسرعان ما وجدنا أنفسنا في زحمة الشوارع مشدودين لكل شيء بكامل حواسنا.. الروائح الزكية المنبعثة من محلات سحق البن، والتوابل، والمقاهي وباعة الشاي الجوالين بأباريقم التوتيائية التي يعلوها السخام، وبسطات الفلافل والطحال والكبد والكلاوي الممتدة على جوانب الميدان.. قلعة «برقوق» المملوكية بجدارها التاريخي وحديقتها ونافورتها التي تقاوم اليباب، صورة الرئيس الراحل ياسر عرفات المطلة على المشهد بعبقه التاريخي.. الجامع الكبير ونداءاته وترتيلاته الصاعدة لعنان السماء، مقهى الأماكن بشرفته المطلة على الشارع والتي تذكرك بمقهى السنترال والجامعة العربية بعمان، المحلات بواجهاتها ومعروضاتها العصرية.. سيل السيارات النشط وهو يغوص ويتجلط في شرايين المدينة، النساء والصبايا المتشحات بالسواد بإشراقة وبشاشة وجوههن، ونظراتهن القلقة المرئية إلى بريق الملابس النسائية المعروضة على واجهات المحلات .. استراقهن النظر للشبان عسى أن يكون في كيس احدهم ما يكفي لدفع مهر إحداهن، ودرء شبح العنوسة المتربصة بهن في مجتمع يتمدد على قتاد البطالة وعسفها وسوطها اللاهب، وشوارع باتت تحن إلى زغاريد الأمهات ومواكب الأعراس وضجيجها، بعد أن ضجت بصيحات الندب والبكاء والعويل، مباني المدينة المختلطة التي يعود تاريخ بعضها إلى ما قبل خمسينات القرن الماضي، الأطفال الذين لا تفارق البسمة شفاههم رغم خروجهم القريب من محرقة العنقوديات الصفراء ورصاصها المصبوب.. في نهاية المطاف وجدنا أنفسنا نتجه غربا على رصيف مزدحم بالبضائع والمارة، بعد أن مللنا المشي تذكرنا موعدنا، أخرجت بطاقة الدعوة التي أنبأتني أن الشارع المقصود هو شارع الأمل، الذي تقع في نهايته تقريبا جمعية الثقافة.. دون طلب منا، توقفت سيارة أنيقة يقودها سائق شاب، اندسسنا في مقعدها الخلفي بعد أن تعهد سائقها اللطيف بتوصيلنا لعين المكان، وما إن وصلنا حتى فوجئنا بمقر الجمعية العصري، اجتزنا بوابته الضيقة بسرعة، وصعدنا الدرج المؤدية للطابق الثاني، وهناك، استقبلنا الزميل الجميل نصر شعث بحفاوة بالغة، ودعانا إلى قاعة بدت لنا لفخامتها وحسن أثاثها كأنها صالة لفندق من طراز الخمسة نجوم، أرائك أعدت بعناية تتمدد أمامها وعلى جوانبها المناضد المعدّة للضيوف، بدا لنا من طريقة عرضها وتوزيعها على الأركان أنها تتيح للضيوف والمشاركين جوّا حميميا نفتقده في غزة عاصمة الإقليم، وتصلح لأن تكون أستوديو للتصوير.

على جانبي الصالة وفي نهايتها عدد من المكاتب، يفصلها عن بعضها البعض عوارض زجاجية فخمة .. ثمة مكتب للإعلام وآخر للعلاقات العامة والسكرتارية والإدارة، وقاعات للتدريب والاجتماع، و بوفيه مفتوح وفترينات زجاجية أنيقة ضمت أهم إصدارات المركز للشعراء والكتاب الشبان يوسف القدرة، وعبد الفتاح شحادة، ومحمود ماضي، وهاني السالمي وغيرهم..

جدران زاهية الألوان علقت عليها لوحات تشكيلية لفنانين من المدينة وخارجها. خلال تجوالنا فوجئنا بالزميل يوسف القدرة ينكب وحيدا على مكتب صغير في قاعة العرض المسرحي، وما إن رآنا حتى نهض لاستقبالنا بالقبلات، ولم ينس أن يخبرنا أنه وفرقته المسرحية قد انتهوا من (بروفات) عمل مسرحي سوف يعرض في قاعة المسحال بغزة قريبا، ووجدتني أترجل على خشبة المسرح، وسرعان ما انضم إلي يوسف مجيباً على أحد أسئلتي بأداء مسرحي دفعني للدهشة والضحك معا .. من السهل في غزة ومدنها أن تطرح الأسئلة، ولكن من الصعب أن تجد الإجابات وربما فاجأك السؤال وأحالك إلى عشرات من الأسئلة المتشظية، التي تشكل دوائر صغيرة تكبر في عقلك ورأسك رويدا رويدا قبل أن ترتطم بالأسلاك الشائكة والجدر التي تحيط بالقطاع..

---

* شاعر ومحرر في جريدة «الحياة الجديدة» الفلسطينية